موارد النثر الفني في ثورة التوابين وإمارة المختار

١- القرآن الكريم

استحوذ القرآن الكريم على أداء الخطباء والمترسلين، لأنّه وبلا شك ((أسلوب جمع الجزالة والسّلاسة والقوة والعذوبة ، ضم البلاغة من أطرافها ، فهو السحر الساحر والنور الباهر والحق الساطع والصدق المبين)) .[١]

فاخذوا يأخذون أسلوبه ،ويترسمون خطاه، ويقتبسون من آياته ليزيلوا بها نتاجهم الأدبي،وليضيفوا عليه طابع الجزالة والرصانة والرونق والبهاء .

أما الخطباء فقد كانوا يكثرون الاقتباس منه ((والمهارة في وضع الآيات بالمواضع الملائمة لها من الخطبة، وإنما عمد الخطباء إلى الاقتباس لأنّهم متذوقون لبلاغة القرآن، فهم يجدون في هذه الآيات تعبيراً صادقاً عما يريدون ان يقولوا))[٢] .

وقد ذكر الجاحظ (ت٢٥٥هـ) ان الخطباء (كانوا يستحسنون ان يكون في الخطب يوم الحفل وفي الكلام ، يوم الجمع آي من القرآن ،فإن ذلك مما يورث الكلام البهاء والوفاء والرقة وسلس الموقع))[٣] . وذكر ان الخطبة التي تخلوا من آيات القرآن قد سميت بالشوهاء .[٤]

أما الرسائل ، فلم تكن اقل شأناً آنذاك من الخطب في تأثيرها بالقرآن الكريم واحتذاء أسلوبه ، وترسم معانيه ، فقد برع المترسلون في مكتباتهم با لنصوص القرآنية ، تأكيداً يسوقه الكاتب من آراء أو تقوية لحجة .[٥]

وكانت هذه السمة الأسلوبية في فن الترسل هي امتداد لما عهده فن الترسل في عصر صدر الإسلام والخلفاء الراشدين ، إذ انّ الكُتّاب قد((تأثروا بالقرآن الكريم الذي ترك آثاراً واضحة في توجيهات بلاغة العربي وفصاحته)).[٦]

وعموماً فقد كان تأثير القرآن الكريم متبلوراً في طرائق المترسلين اذ كان هذا واضحاً

---

(١) - الحياة الأدبية في عصر صدر الإسلام :٥٩ .
(٢) - أدب السياسة في العصر الأموي :٣٥٣.
(٣) - البيان والتبيين :١١٨/١ .
(٤) - ظ : السابق :٦/٢ .
(٥) - ظ: الرسائل الفنية في العصر الإسلامي إلى نهاية العصر الأموي :٣١٥ .
(٦) النثر الفني في القرن الرابع ٦٥/١-٦٦ .

في رسائل أصحاب المذاهب ورؤساء النحل الدينية حتى أضحى القرآن الكريم معيناً تنهل منه الرسائل كثيراً من معينها، وتستمد من فيضه ذلك العطاء الخصب .[١]

وكان العامل السياسي المتمثل بكثرة الأحزاب السّياسية قد ارتبطت ارتباطاً مباشراً بالدين ، وان كل حزب يدعي ناصر له فكان تأثير القرآن عندها واضحاً في تلك الرسائل ، كما كان هذا واضحاً في الخطب .

وإذا كانت مرحلتا التوابين والمختار الثقفي انما قامتا على اعتبار سياسي عقائدي فكان هدفها الأول والأخير هو التمسك بقيم القرآن والسنة النبوية وإرجاع الحق إلى أهله الشرعيين ، ومن هذا المنطلق كان القرآن الكريم هو المصدر الأول من مصادر نثر المرحلتين . فاخذ الخطباء والمترسلون فيهما يقتبسون من آياته ، ويحتذون أسلوبه ، تأييدا لفكرة أو دحضاً لرأي أو تزييناً وتنميقاً لأسلوب .

وسوف يعرض البحث إلى أنماط التأثير القرآني في خطب ورسائل هاتين الحقبتين.

أ-الاقتباس القرآنيّ :

الاقتباس في اللغة مأخوذ من القبس وهو :((شعلة من نار تقتبسها من معظم ،واقتباسها الأخذ منها ، وقوله تعالى :{بشهاب قبس}.....[٢] وفي حديث عليّ (رضوان الله عليه): ((حتى أورى قبساً لِقابسِ))،أي ، اظهر نوراً من الحق لطالبه .. واقتبست منه علماً أي: استفدته)) .[٣]

وفي الاصطلاح فقد عرفه القلقشندى (ت٨٢١هـ) ((هو ان يضمن الكلام شيئاً من القرآن ولا يبنه عليه)) .[٤]

ويجب ان لا يذكر فيه : قال الله أو نحوه ، فان ذلك حينئذ لا يكون اقتباساً [٥] وقد خص الاقتباس (بالقرآن الكريم)تميز له عن سائر الكلام .[٦]

وقد ورد الاقتباس بكثرة في خطب ورسائل المرحلتين حتى أصبح ميزة أسلوبية فنية

---

(١) - الرسائل الفنية في العصر الإسلامي إلى نهاية العصر الأموي: ٣١٤ .
(٢) -النمل : ٢ .
(٣) -لسان العرب ، مادة قبس) :١١/١١ .
(٤) - لسان الأعشى في صناعة الانشاء: ٢٣٧/١ .
(٥) -ظ: أنوار الربيع في أنواع البديع ٢١٧/٢ .
(٦) -ظ: السابق :٢٣٢/٢ .

تشترك فيها معظم تلكم الخطب والرسائل ، من ذلك ما جاء في خطبة سليمان صرد بقوله :((**أُثْني على الله خيراً ، واحمد آلاءه وبلاءهَ ، واشهد أنْ لا اله إلا الله ، وانّ محُمّداً رسول الله ، أما بعد فاني والله لخائف إلا يكون أخرنا إلى هذا الدهر الذي نَكدت فيه المَعيشة، وَعظمت فيه الرزية ، وشَمِلَ فيه الجَور أولي الفضل من هذه الشيعة .....،ولا ترجعوا إلى الحلائل والأبناء حتى يرضى الله ...كونوا كالأولى من بني إسرائيل إذ قال لهم نبيهم : إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم ، فما فَعل القوم ؟ جَثَوا على الرُكبْ والله ، ومد وا الأعناق ورَضُوا بالقضاء حتى حين عَلْمُوا انه لا ينجيهم من عظيم الذنب إلا الصبر على القتل ن فكيف بكم لو قد دعيتم إلى مثل ما دعي إليه ؟اشحذوا السيوف ، وركبوا الأسنة ،واعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل))**.[1]

ان في هذه الخطبة اقتباسين قرآنيين ،الأ ول :كان لآية من سورة البقرة : ﴿ **وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ** ﴾ [2] فأراد الخطيب ان يستثمر من قصة موسى مع قومه وكان عرضه ان يشبه قومه ونفسه بأصحاب موسى من سموا أنفسهم بالتوابين لأنهم تابوا من عظيم جرمهم ، حينما دعوا الحسين عليه السلام ولم ينصروه .

والاقتباس الثاني كان من سورة الأنفال وهي: ﴿ **وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمْ اللَّهُ يَعْلَمُ هُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لا تُظْلَمُونَ** ﴾ .[3]

وأراد بهذا الاقتباس ايضاً ان للألفاظ يشحذ الهمم قبل شحذ السيوف وتركيب الأسنة ، لعلمه بتأثير الأسلوب القرآني فيه اقوي وأعمق في النفوس كيف لا ؟ وقد ((بهر العرب رونقه وخلب ألبابهم جرسه ووقعه ، وملك نفوسهم ما فيه من جمال وبراعة الصورة وسمة البيان وروعة الأداء)) [4] .

---

(1) -جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة .٢/٦٠-٦١ .
(2) -البقرة : ٥٤ .
(3) -الأنفال : ٦٠ .
(4) - الحياة الأدبية في عصر صدر الإسلام :٤ ٥.

ان هذا الأداء البديعي في اقتباس الآيات الكريمة ، والمهارة في أحكام وضعها موضعاً في رسائله، لهو دليل واضح على ملكة الخطيب وإلمامه بالمضمومات القرآنية ، حتى تجدها قد ملأت قلبه ، وانسابت على لسانه انسياباً .

ولم يكن ابن صرد يعمد إلى الاقتباس القرآني في خطبه فقط ، وإنما نجد هذا واضحاً في رسائله ، فن ذلك ما جاء في كتابه الذي بعث به الى سعد بن حذيفة بن اليمان التي جاء فيها :((**إنّ أولياء الله مِنْ إخوانكم وشيعةِ بل نبيكم ، فانظروا لأنْفُسمْ فيما ابتُتُلوا به من أمر ابن بنت نبيهم .... وبعين الله ما يعملون ،والى الله ما يرْجعُون ، وَسيَعلْمُ الذين ظلمُوا ايَّ منُقلب يَنقلبُون**)) . [1]

فالمهارة الفائقة في وضع الآية مع ما سبقها من كلام له فواصل مماثلة لفاصلة الآية المنتهية ((بالواو والنون)) ، كي يحقق الانسجام الصوتي بين العبارات، كي تناسب متابعة ، من دون تعقيد أو تلكؤ .

ويمكن تفسير كثرة الاقتباسات وتأثر المنشيء وشغفه بأسلوب القرآن الكريم ، بأنه كان صحابياً [2] للرسول الكريم ، وتأثر به وبدعوته الإسلامية ن فكان لابدّ ان يترك ذلك اثراً وظلالاً على هذا الرجل ، ومن الطبيعي ان تكون آيات القرآن، الكريم ، ومعانيه ماثلة في ذهنه ووجدانه ، وهذا ما ينم له عن استيعابه وتذوقه للنص القرآني فإذا ما راد شيئاً من القرآن لم يتكلفه بل يأتيه منساباً متى ما أراد .

ومما جاء من الاقتباس القرآني ايضاً كان في خطبة محمد بن الحنفية حين قدم عليه عبد الرحمن بن شريح يسأله عن مصداق دعوة المختار الثقفي ، فجاء في الخطبة **:((فأمّا ما ذكرتُم ممّا خَصَّصنا الله بهِ من فَضلٍ ، فان الله يؤتيهِ منْ يشاء والله ذو الفضل العظيم ، فلله الحمد ، وأما ما ذكرتم من مصيبتنا بحسين ، فان ذلك كانَ في الذكر الحكيم ، وهي ملحمة كُتَبتَ عليه، وكرامة أهداها الله لهُ ،ورَفَعَ بما كان منها درجات قوم عنده ، ووضع بها آخرين ، وكان أمر الله مفعولاً ، وكان أمر الله قدراً مقدوراً ...))**.[3]

فنجد ان الاقتباس القرآني قد وقع مرتين ، **الأولى** وهو مأخوذ من قوله تعالى**: ﴿سَابِقُوا**

---

(1) - جمهرة رسائل العرب : ١١٤/٢ .
(2) - ظ : وقعة صفين :٤٠٠ .
(3) - الأحزاب :٣٧-٣٨ .

إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَ بِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [1]

وأمّا الاقتباس الثاني ، فكان من قوله تعالى :﴿ **مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَراً مَقْدُوراً﴾** [2]

فنجد إن هذا النص بما يحتويه من اقتباسات قرآنية ، يكشف لنا من جوانب تمرس الخطيب ، وتمكنه في الاختيار والتوزيع ، ذلك من خلال انتقاء اقتباسيين قرآنيين متفرقين يحملان دلالة متقاربة ، يتحدث الأول عن آيات الله فضله على من يشاء من عباده الصالحين، ويعني به فضل آل البيت (عليهم السلام) من ناحية ان الله شرفهم بمنزلتهم من النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ، وفضله العظيم .

والاقتباس الثاني يتحدث عن إتيان الكرامة والفضل للإمام الحسين (عليه السلام) ، واستشهاده من اجل إحياء دين الله القويم، فكان أمر الله الذي قضاه عليه مفعولا، يقول الدكتور محمد أبو موسى :((وقوله { وكان أمر الله مقدراً مقدورا} وبقوله هنا (وكان أمر الله قدراً مقدورا) نلحظ ان الفاصلة الثانية اشمل وأكثر للأعباء والصعاب التي يواجهها النبيون وأهل البلاغ ،لأنها تشمل كل ما يتصل بذلك من أذى، وعداء مناسب التوكيد)).[3]

ومن هذا التحليل الذي قال به الدكتور أبو موسى يتضح لنا ان الخطيب كان حاذقاً في انتفائه لهذه الآيا ت المباركة، وإيداعها في خطبتهِ ايداعاً موفقاً ، وما يتأتى ذلك إلا لمن وعى آيات القرآن تأملاً وتدبراً .

ومن الاقتباسات القرآنية ما جاء في رسالة عبد الله بن يزيد إلى ابن صرد طالباً منه الرجوع هو وأصحابه عن قتال الجيش الأموي بقوله :((**بسم الله الرحمن الرحيم . منْ عبد الله بن يزيد إلى سليمان بن صرد ومَنْ معه منَ المسلمين . سلام عليكم ، أما بعد فان كتابي هذا إليكم كتاب واضح ناصح ذي ارعاء .... يا قومنا لا تُطْمعوا عدَّوكم في أهل بلادكم ،فإنكم خيار كلكم .... { إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ**

---

(1) - الحديد :٢١ .
(2) - الأحزاب :٣٧-٣٨ .
(3) - من أسرار التعبير القرآني دراسة تحليلة لسورة الأحزاب :٣٤٩

تُفْلِحُوا إِذاً أَبَداً }يا قومنا ان أيدينا وأيدكم اليوم واحدة ...)) . [1]

فالاقتباس واضح من قوله تعالى : ﴿ **إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذاً أَبَداً** ﴾ [2]

وكان اختياره في هذا الموضع مقصوداً فيه، لأنه يحتوي على أداة (يا) فجاء متلائماً مع ما سبقه أو جاء بعده من جمل تصدرت بأداة النداء ما جعل درج الكلام واحداً متناسقاً في العبارة ، فلم يبق متكلفاً ثقيلاً ، بل جاء عن فطرة وطبع سليم فنسق العبارة مع الاقتباس القرآني جاء مناسبا على لسانه وتمازج مع خاطره ،وما كان ذلك إلا عن تأثر بالقرآن الكريم ((الذي هو روح الفطرة اللغوية فيهم إذ هو وجه الكمال اللغوي الذي عرف أرواحهم ، واطلع على قلوبهم)) [3] .

وكان هذا الاقتباس يؤكد بمقدرة الكاتب في البلاغة والبرا عة في وضع الاية ضمن سياقها من دون نشاز أو إخلال بتأليف الكلام .

وجاء ايضاً في خطبة مصعب بن الزبير الذي ألقاها حين قدم إلى البصرة لقتال المختار ، وقد اعتمد فيها على القرآن وحده وقد جاء اختيار الآيات المعبرة فقال : **﴿طسم (١) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ نَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٣) إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنْ الْمُفْسِدِينَ (٤) وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمْ الْوَارِثِينَ (٥) وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَنُرِي فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴾ وأشار بيده نحو العراق))**[4] .

فقد ورد الاقتباس في صدر النص واستمر حتى توزيع على اسيقته كاملة حتى خاتمته، وإنما كان كذلك حتى يضفي على كلامه طابع الفخامة والجزالة، والرونق لكي يشد المتلقي إليه ويجبره على التواصل الفكري مع تراكيبه اللغوية والقرآنية المكونة للنص، ولا سيما إذا كانت الفقرات اللاحقة للنص المقتبس هي كيان دلالي واحد كونه مقتبس من سورة واحدة ، وبآياتها المتتالية المتناسقة وقد أراد الخطيب من هذا الاقتباس ايضاً ان يشبه ((

---

(١) - جمهرة رسائل العرب :١١٨-١١٩ .

(٢) -الكهف :٢٠ .

(٣) - اعجاز القرآن والبلاغة النبوية :١٣٤ .

(٤) - البيان والتبيين ٢٩٩/٢-٣٠٠والايات ١،٢،٣،٤،٥،٦ من القصص .

بني أمية بفرعون في الطغيان والاعتداء على حق الحياة ، ويتكهن بأن الزبيريين الذي ينكل بهم بنو أمية هو الذين ينزعون الملك منهم ويرثون ، وبأن العراق سيكون مقر ملكهم ، وبأن بنو أمية سيصطلون من نار الزبيريين ما كانوا يخشونه)).[١]

ومن هنا يتضح لنا ومن خلال الأمثلة المذكورة ان الاقتباس القرآني كان مقصوداً من الخطباء والمتراسلين يلي أغراضنا بعينها هي كامنة ، وعندها كانوا ماهرين في وضع الآيات بالمواضع الملائمة لها من الخطب والرسائل .

ب- **الاستشهاد بالآيات القرآنية:**

يختلف الاستشهاد بالآيات القرآنية عن الاقتباس القرآني بأن الأخير تذكر الآية ولا ينبه عليها أنها من القرآن ، في حين أن الاستشهاد يكون بقول المتكلم (قال الله)) أو نحو

ذلك وقد أشار ابن معصوم المدني (ت١١٢٠هـ) أنه لا يكون الأخذ من القرآن اقتباسا إذا قال المتكلم :

(قال الله) أو غيره [٢] فإذا لم يكن الأخذ على هذه الشاكلة اقتباسا فلم يبق إلا أن يكون

استشهاداً بالآيات القرآنية.

وقد ورد مثل هذا الاستشهاد في خطبة المسيب بن نجبة الفزاري بقوله: ((أما بعد ابتلينا بطول العمر،والتعرض لأنواع الفتن، فنرغب إلى ربنا ألا يجعلنا ممن يقول له غداً

(أولم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير))[٣] .

فقد استشهد الخطيب بآي الذكر الحكيم من قوله تبلك وتعالى: ﴿**وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمْ**

---

(١) - أدب السياسة في العصر الأموي :٣٥٦ .
(٢) - ظ: أنوار الربيع في أنواع البديع ٢١٧/٢ .
(٣)- جمهرة خطب العرب ٥١/٢ .

النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾ [1]

فكان هذا الاستشهاد تنبيها للسامع بما تحمل هذه الآية من مضمونات دلالية وتذكيره بذلك

الموقف الصعب الذي يقف فيه العباد أمام ربهم ليسألهم عما أقدموا عليه، فكان ذلك حتى يأخذ المتلقي مراجعه نفسه ومحاسبتها، بما بدر عنها من قصور أو تقصير، وإذا ما عرفنا أن الخطيب كان يفرغ زفرات همومه وندمه على ما فرط هو واضطرابه من تقصير تجاه قضية الإمام الحسين عليه السلام يتبين لنا سبب ذلك الاستشهاد بهذه الآية الكريمة من دون سواها من الآيات، فالخطيب في معرض الدعاء مع ألا يجعله يوم القيامة في ذلك الموقف الذي يسال عنه العباد في تقصيرهم، وكان يرى قتل قاتلي الحسين عليه السلام والموالين عليه أو القتل في سبيل ذلك هي السبيل ،الوحيدة الذي يدرأ عنهم ذلك السؤال يوم القيامة، والرضوان من انه حين قال: ((لا والله لاَ عُذرَ دُون انْ تَقْتُلوا قاتله والموالين عليه أو تُقتلوا في طلب ذلك، فعسى ربنا أن يرضى عنا عند ذلك)) [2] .

وما جاء من الآيات القرآنية على سبيل الاستشهاد كان في رسالة سليمان بن صرد إلى عبد الله بن يزيد ، فقال : ((بسم الله الرحمن الرحيم للأمير عبد الله بن يزيد ، من سليمان بن صرد ومَنْ معَهُ من المؤمنين ، سلام عليك أما بعد، فقد قرانا كتابك، وفهمنا ما نويت ،فَنِعَم والله ....أنا سَمْعنا الله عز وجل يقول في كتابه :﴿ **إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنْ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمْ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنْ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمْ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١١١) التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنْ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرْ الْمُؤْمِنِينَ** ﴾ [3]

فقد استشهد المرسل بهذه الآيات الطويلة نوعاً ما ، وهو دليل قاطع على إلمامه بالنص

---

(1) -فاطر :٣٧ .
(2) - جمهرة خطب العرب ٥١/٢ .
(3) - جمهرة رسائل العرب ١٠٩/٢-١١٠ ، والآيتان ١١١-١١٢ من التوبة .

القرآني ، وحفظه آياته ، وكان هذا شأن ابن صرد في ما يرتجله من خطب أو ما يحبره من رسائل ، ومن هذا الاستشهاد تتحقق وظيفته الأسلوبية ، ففي الوقت الذي يحقق فيه وظيفة دلالية ، فإنه يعمل وظيفة نفسية من خلال إقناع المتلقي بمشروعية قضيتهم التي عقدوا العزم وصمموا لتأديتها . وكان ذلك من خلال هذا الاستشهاد القرآني وبهذه الآيات التي يتحدث فيها تبارك وتعالى عن الجهاد الذي سنه على المسلمين دفاعاً عن الحق في مواجهة الباطل .

ج- محاكاة أسلوب القرآن واحتذاؤه :

من صور التأثير القرآني محاكاة أسلوبه واستعارة عبارته وألفاظه وطرائق تعبيره ،واستلهام معانيه .وكان هذا شائعا في خطب ورسائل المرحلتين ، وهو دليل على إعجاب الخطباء والمتراسلين بأسلوب القرآن الكريم ورغبتهم بمحاكاته ((ولا يتهيأ ذلك إلا لمن كانت آيات القرآن لسانه انسيابا وترسخ معانيه في ذهنه))[١] وعندها نجد أن محاكاة أسلوبه ((مظهر من مظاهر التأثر القرآني فقد بلغ من إعجاب الأدباء بهذا الأسلوب أن في بعض عباراتهم إذ توخوا محاكاة ألفاظه وتعابيره وطريقة أدائه)).[٢]

وكانت تلك المحاكاة على نمطين :

الأول – يعتمد على ألفاظ القرآن كما هي مع تصرف يسير في صياغتها أي أن الخطيب أو المترسل يأتي ببعض الآيات الكريمة من النص القرآني، ويتصرف ببعض ألفاظها، تحويلاً إلى تراكيب جديدة تكون معززة دلالياً بتوظيف المعاني القرآنية بألفاظها المنقولة من النص .

الثاني : يعتمد على معاني النص القرآني من دون صياغته ، اي يقوم الخطيب أو المترسل على استمداد واستحياء المعاني القرآنية وإفراغها في بنى تركيبية جديدة ذات دلالات قائمة على المعاني المستلة من ذلك النص .

---

(١) -الرسائل السياسية في العصر العباسي الأول :١٨٥ .
(٢) -الخطابة العربية في عصرها الذهبي :١٩٩ .

ولقد كان بعض

الخطباء والمترسلين ((يستمدون من القرآن الكريم بعض المعاني،ويجرونها على ألسنتهم حتى يفخموا بها أقوالهم ويجتذبوا نفوس سامعيهم عامدين أو غير عامدين)) [١]

ومما جاء على النمط الأول كان في خطبة سليمان بن صرد لقوله :((أما بَعدُ فقد

أتاكم الله بعدوكم الذي دأبتم في المسير إليه آناء الليل والنهار... **وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلاَّ مُتَحَرِّفاً لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنْ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ** . فقوله الأخير مستمد من قوله تعالى : ﴿**وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلاَّ مُتَحَرِّفاً لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنْ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ**﴾ [٢] فكاد الأخذ من هذه الآية ان يكون اقتباساً لولا هذا التصرف الجزئي في بعض ألفاظ الآية من استبدال وإضافة ، وما ذلك إلا دليل على إمكان استيعاب النص القرآني ، واستثمار ألفاظه وتراكيبه على أي وجه بما يزيد من قوة الأسلوب وعمق المعنى ، حتى يعبىء النفوس للخروج والثورة على الظالمين .

ومما جاء من محاكاة الأسلوب القرآني واستثمار ألفاظه قول يزيد بن انس الاسدي في خطبة محرضاً أصحاب المختار لملاقاة جند ابن مطيع الوالي الزبيري .فقال:((يا معشر الشيعة ،قد كنتم تُقْتلون وتُقطع أيديكم وأرجلكم ، وتُسمْل أعينكم ، وتُرفعون على جذوع النخل في حب أهل بيت نبيكم؟ وأنتم مقيمون في بيوتكم، وطاعه عدوكم. ....[٣]

فواضح ان أسلوبه كان مستمداً من أسلوب القرآن الكريم ومن الآية الكريمة لقوله تعالى :﴿ **قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمْ السِّحْرَ فَلأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلافٍ وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَاباً وَأَبْقَى** ﴾ [٤]

---

(١) - أدب السياسة في العصر الأموي : ٣٥٧ .
(٢) - سورة الأنفال :١٦
(٣) - جمهرة خطب العرب :٨٢/٢ .
(٤) - سورة طه :٧١ .

وبهذا الاحتذاء الأسلوبي للأية يؤكد الخطيب مدى الظلم الذي لحق الشيعة من ولاة ذلك العصر الذين نكلوا بهم وساموهم سوء العذاب ، وهو بهذا يجتذب إليه أذهان السامعين لكي يلتفتوا لعظم الخطر المحدق بهم، لو أنهم أدركهم أصحاب ابن مطيع لذا فلاستعداد لهم اولى لكي لا تعود الصورة المأساوية مرة أخرى.

ولم يجد الخطيب سبيلاً من إيصال الدلالات وتكريسها إلا باحتذاء الأسلوب الذي يتميز بالإبانة الموجزة المحكمة في قوة المنطق ، وصدق الحجة وبلوغ الهدف .

وجاء النمط الثاني من محاكاة الأسلوب القرآني وهو استعداد معانيه وإفراغها في بنى ، تراكبية جديدة بقول المختار في خطبة حين شيع ابن الاشتر لقتال عبيد ´الله بن زياد((**استقمتم فبنصر الله ،وان حْصتُم حيصة فاني اجد ف ي مُحْكُم الكتاب، وفي اليقين والصواب ان الله مؤيدكم بملائكة غضاب**)) [١]

وواضح أنه أراد أن يثبت فؤاد ابن الاشتر وأصحابه ، ويطمئنهم بأن اثه ناصرهم ومؤيدهم بملائكة غضاب، ولم يجد بدا من أن ينهل من معاني الآية الكريمة من قوله تعالى: ﴿ **إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلاثَةِ آلافٍ مِنْ الْمَلائِكَةِ مُنْزَلِينَ (١٢٤) بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلافٍ مِنْ الْمَلائِكَ ةِ مُسَوِّمِينَ** ﴾ [٢]

وجاء في رسالة المختار التي بعث بها إلى محمد بن الحنفية قوله :((**بسم الله الرحمن الرحيم للمهدي محمد بن على من المختار بن أبي عبيد .سلام عليك يا أيها .المهدي....فإن الله بعثني نقمة على أعد ائكم ، فهم بين قتيل وشريد ..وقد بعثت إليك برأس بن سعد وابنه ، وقد قتلنا من شرك في دم الحسين وأهل بيته...ولنْ يعجزَ الله من بقيْ**

(١) -الكامل في اللغة والأدب :٦٦٦ وظ : جمهرة خطب العرب :٨٨/٢ .
(٢) -آل عمران :١٢٤-١٢٥ .

، ولست بمنجم عنهم حتى لا يبلغني أن على أديم الأرض منهم أرميا.)).[١]

فقوله :ولن يعجز الله من بقي، ولست بمنجم عنهم حتى لا يبلغني أن على أديم الأرض منهم أرميا،فهو مستمد في معناه من قوله تعالى على سان نوح)عليه السلم ((**وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنْ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً**)) .[٢]

ومما تقدم نجد أن المختار قد صاغ ضروباً متفرقة من معاني الآيات القرآنية وذلك بما ينسجم مع مقتضيات المقام والحال التي هو في صددها ، وهذا يكشف عن براعته في الإفادة من تلك المعاني العالية وتسخيرها بالكيفية التي يريد وان تلك الإفادة من المعاني والسعي إلى تكريسها لهو مظاهر مظهر من مظاهر الثأثيرالكبير من الخطباء والمترسلين في هذا العصر ببديع أسلوب القرآن الكريم و نظمه وقوة معانيه فإنه ((يداور المعاني ويزيغ الأس‌اليب ويخاطب الروح بمنطقها من ألوان الكلام لا من حروفه ، وهو يتألف الناس بهذه الخصوصية فيه، حتى ينتهي بهم مما يفهمون إلى ما يجب أن يفهموا)).[٣]

وقد جاء اجتماع النمطين معا من محاكاة النص القرآني في رسالة سليمان بن صرد

في رسالته: ((**فاصبروا(رحمكم الله) على البأساء والضراء وحين البأس ، وتوبوا إلى الله عن قريب ...إن التقوى أفضل الزاد في الدنيا ، وما سوى ذلك ا يبور ويفنى ... أحيانا الله وإياكم حياةً طيبةً ،وأجاركم من النار** ...))[٤]

فقد استمد ابن صرد ضروباً مختلفة من آي الذكر الحكيم ووشح بها أسلوبه ليضفي عليه حلة بديهية تجتذب إليها إسماع المتلقين ، فهو تارة يعتمد على آيات قرآنية في ألفاظها تصرفا جزئياً كما في قوله (فاصبروا)رحمكم الله (على البأساء والضراء وحين البأس) وهو مأخوذ من قوله تعالى :﴿ **الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِي نَ فِي**

---

(١) جمهرة خطب العرب :١١٧/٢ ،ومنجم / مقلع K ارميا احدا .
(٢) نوح :٢٦ ، وظ: في هذا ادب السياسة في العصر الأموي ٣٢١ .
(٣) - اعجاز القرآن والبلاغة النبوية :١٤٨
(٤) - جمهرة رسائل العرب :١١٥/٢-١١٦ .

الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُوْلَئِكَ هُمْ الْمُتَّقُونَ﴾ [1]

وتارة يعتمد على معاني النص القرآني من دون صياغته ، فيفرغها في بنى جديدة

تحمل دلالات النص القرآني المعتمد .كمثل قول :(إن التقوى أفضل الزاد في الدنيا)

وهنا المعنى مأخوذ ًمن قوله تعالى :﴿ **وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِي يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ﴾** .[2]

أما قوله (أحيانا الله وإياكم حياة طيبة) فهو يعنى مستمد ضمنا من قوله تبارك وتعالى : ﴿ **مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِ نْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾** [3].

فقد اعتمد ابن صرد على ألفاظ ومعاني آيات متفرقة من القرآن الكريم ، فأحكم وصفها بالآيات الكريمة حتى يضفي على أس لوبه طابع الجزالة والرصانة ، ليميل نحوه الأسماع ويصرف إليه الأنظار، ويأخذ بمجامع القلوب.

ونجد أن هذا التنويع في التقاط أكبر عدد ممكن من الآيات دلالة واضحة على تأثر المنشئ بآيات القرآن الكريم.

٢- الحديث النبوي الشريف . :

كان الرسول الكريم (صلى الله عليه وآله وسلم)أبلغ العرب لساناً، وأفصحهم بياناً وأصدقهم لهجة ، وأعذبهم أسلوبا ، وأروعهم حكمه وكان (صلى الله عليه وآله وسلم)أفصح العرب وأطبعهم على البلاغة فكانت بلاغة الذكر الحكيم وهي البلاغة التي سجدت الأفكار

---

(١) -البقرة :١٧٧ .
(٢) -البقرة :١٩٧ .
(٣) - النحل ٩٧ .

لفصولها، وحسرت العقل دون غاياتها)).[1]

فقد تقلب الرسول الكريم (صلى الله عليه وآله وسلم) في أخلص القبائل منطقا وأعذبهم بيانا، فقد ولد في بني هاشم ونشأ في قريش واسترضع في بني سعد، فكانت فصاحته أشبه بـ ((الإلهام والفيض فلم يعانها ولم يتكلفها ولم يرتض لها وإنما أسلست له الالفاظ واسمجت له لمعاني، فلم يند في لسانه لفظ، ولم تضطرب في أسلوبه عبارة)).[2]

وقال الجاحظ (ت٢٥٥هـ)واصفاً كلامه (صلى الله عليه وآله وسلم) :(وهو الكلام الذي قل حروفه وكثر عدد معانيه،ونزه عن التكلف، استعمل المبسوط في موضع البسط،والمقصور في موضع القصر، وهَجَر الغريب الوحشي، ورغب عن الهجين السوقي، فلم ينطق إلا عن ميراث حكمة، ولم يتكلم إلا بكلام قد حُفَّ بالعصمة ، وشيد بالتأييد، ويُسّرَ بالتوفيق ، ثم لم يَسْمع الناس بكلام قط أعمَّ نفعاً ، ولا أقصد لفظاً ،ولا اعدل وزناً ،ولا أجمل مذهباً ولا أكرم مطلباَ، ولا أحسن موقعا،ولا أسهل مخرجاَ ولا أفصح معنى،ولا أبين في فحوى ، من كلامه)).[3]

ومن الطبيعي أن يكون الخطباء والمترسلون قد تأثروا بكلامه ((صلى الله عليه وآله وسلم) فاخذوا يحاكون أسلوبه وينهلون من معانيه ، وربما كان المنشؤون يفعلون ذلك ليؤكدوا صحة مذهبهم وسلامة رأيهم ، فكان واحدهم ((يبني كلامه أصل لا يزلزل ويسوق مقاصده الى سبيل لا يضل عنه فان الدليل على النص قوية فيه الحجة ، وسلم له الخصم ، وأذعن له المعاند، والفصاحة والبلاغة إذا طلبت غايتها فانها بعد كتاب الله في كلام من اوتي جوامع الكلم)).[4]

ومما جاء على سبيل التأثر بالحديث النبو ي الشريف واحتذاء أسلوبه، والأخذ بمعانيه ،ما جاء في خطبة عبيد الله بن يزيد:((**إن المسلم أخو المسلم لا يخونه ولا يغشه وانتم إخواننا**

---

(١) - ظ : الحياة الأدبية في عصر صدر الإسلام :١٠١ .
(٢) - تاريخ الأدب العربي (الزيات) :١٣١ .
(٣) - البيان والتبيين :١٥٢/١ .
(٤) - صبحي الأعشى :٢٤٣/١-٢٤٤ .

واهل بلدنا واحب اهل مصر خلقه الله الينا ، فلا تفجعونا بأنفسكم ولا تنقصوا عددنا بخروجكم من جماعتنا [١].

مأخوذ من قوله (صلى الله عليه وآله وسلم) ،((المسلم اخو المسلم لا يخذله ولا يخونه ولا يسلمه في مصيبة نزلت به))[٢]

ومن قوله (صلى الله عليه وآله وسلم)في حديث له عن أبي موسى الأشعري : (من غشنا فليس منا)).[٣]

أو قوله (صلى الله عليه وآله وسلم) :((من غش المسلمين فليس منهم)).[٤]

فقد ذكر الخطيب في كلثمه هذين الحديثين الشريفين ضمنا فكأنه قد وعى أحاديث رسوله ((صلى الله عليه وآله وسلم) والتقط منها ما يناسب الموضوع الذي هو في صدده ،وما هذا إلا دليل على المعرفة المستقصية من الخطيب بالأحاديث والقدرة على الإفادة منها في الوقت المناسب ،وعموما فقد أراد الخطيب بهذا لفت تنبه السامع مع الحث على التمسك بالأخلاق الحميدة التي يجب أن يتحلى بها المسلم ، والتي أكدها بالجمع من معاني أحاديث المصطفى (صلى الله عليه وآله وسلم) في عدم خيانة المسلم أو غشه ، ثم قرن هذا الإخبار بـ (إن المؤكدة لترسيخ الخ بر في ذهن السامع وليبدي الخطيب عندها أي: بهذه المعاني الشريفة صدق نيته في عدم غش التوابين أو خيانتهم.

ونجد عند سليمان بن صرد ترسما لمعاني الحديث الشريف واقتباسا لصورته في خطبته التي ألقاها أمام الثائرين فقال: ((**فإن الجهادَ سنامُ العَمَل. جَعَلنا الله وإياكم من العباد الصالحيَن ، المجاهديَن الصابرين على اللاواء...**))[٥]

---

(١) - جمهرة خطب العرب :٧٠/٢ .
(٢) - المعجم الكبير ، الطبراني ٢٤٨/١٢ .وظ: مجمع الزوائد ومنبع الفوائد :٣٣٩/٨ .جمهرة خطب العرب :٧٠/٢ .
(٣) - مجمع الزوائد : ١٣٩/٤ .
(٤) - السابق :١٤٠/٤ .
(٥) - جمهرة خطب العرب :٧١/٢ . واللاواء : الشدة .

يمضى ابن صرد هنا في الحث على الجهاد وتزيينه في قلوب الثائرين مستعينا بحديث رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم حينما اخبر معاذ بن جبل بقوله **:((أخُبركَ برأس الامْر ما وَعَمُوده وَذروَة سنَامه قال : بلى يَارسول الله قال :اما رَأسُ الأمر الإسلام أما وَعمُودهُ الصلاة وَذروةُ سَنامهِ الجْهاد))**.[1]

فقد اقتبس ابن صرد من هذا الحديث جملته الأخيرة (الجهاد سنام العمل) وهذا ما يناسب موضوع خطبته، وكان اقتباسا موفقا في موضعه، والقول الذي ساقه ابن صرد عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) إنما هو (استعارة) تدل على رفعة الجهاد وعلوه وبهذا يقول الشريف الرضي (ت: 404):((وجعل الجهاد ذروة سنامه (أي العمل) لأنه بعد الرأس أعلى مشارفه وأرفع مراتبه، وبه(أي الجهاد) ينشأ بناؤه ، ويقام لواؤه ، ويقمع أعداؤه)).[2]

وبهذا الاقتباس يكون ابن صرد قد وصل مقاصده بدليل مفحم من الحديث، وذلك ليحث السامع على التفاني من أجل مجاهدة الظالمين ولما كان الجهاد أرفع الأعمال وأشرفها بدليل قول الرسول الكريم فعليه سرعة انجازه وعدم التواني عنه.

ومما جاء على سبيل الاحتذاء الأسلوبي لأقوال الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)

واستثمار معانيها في الحال المناسب ما جاء في خطبة المختار الثقفي **:((إني إنما اعملُ على مثالٍ قد مثّل لي ، وامر قَدّ ُبينَ لي ، فيه عزٌّ ولِيِّكُمْ ، وقَتْلُ عَدّوِكم ، وشِفاءُ صدوِركم ، فاسمعوا مني قولي ، وأطيعوا أمري ، ثم ابشروا وتباشروا ، فاني لكم بكل ما تأملون خير زعيم))**[3]

فقوله (إني لكم بلك ما تأملون خير زعيم) والزعيم هنا الكفيل والحميل فكأنما يريد

المختار أن يقول إني سأحقق هذه الغاية ، وانتقم من الظالمين ن وانا خير كفيل بهذا ، وهذا يذكرنا بقول رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) :((انا زعيم لمن آمن واسلم وجاهد

---

(١) -المستدرك على الصحيحين :٨٦/٢ .
(٢) - المجازات النبوية :٣٧٥ .
(٣) - جمهرة خطب العرب :٧٥/٢ .

في سبيل الله ، يبيت في ربض الجنة ويبيت في وسط الجنة في اعلى الجنة)).[1]

فقد استعان المختار بلفظ (زعيم) التي أوردها الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) كي يحقق قصده منها في إيصاله للمعاني والأفكار ، لأن ((ألفاظ الحديث الشريف مألوفة 0

ترتاح إليها الإسماع ،يستسيغها في النطق اللسان.ترق.في موضع اللين ، وتجزل حين

يقتضي الأمر الجزالة ،تراعي مقتضى الحال ، فتؤدي وظيفتها الدلالية واللفظية بكفا ءة عالية ونسيج فريد)).[2]

وهكذا تأثر المنشئون في هذين الحقبتين آو المرحلتين بـأحاديث الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) فاقتبسوا منها ،وأفادوا من معانيها ليزيدوا من قوة أسلوبهم جمالاً وإحكاماً .

٣- خطب الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام ورسائله :

المورد الثالث من موارد نثر التوابين وإمارة المختار هو النثر الفني لأمير ،المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام إذ كان هذا النثر قد طبع بصماته على أدب هاتين الحقبتين فتمثله الخطباء والمترسلون وساروا على نهجه ، سواء أكان في أسلوبه وصياغته أم في معانيه وأفكاره ، وقد بلغ في ذلك شأناً كبيرا يقارب في تأثره تأثرهم بالقرآن الكريم ، مما أضفى على بعض تلكم الخطب والرسائل بطابع أسلوبي واضح ،و لاشك إن ذلك متأت من أن الإمام عليه السلام كان من أبلغ الخطباء وإعلامهم - وتشهد له بذلك كل العصور - لأنه نشأ في بيت النبوة، وتغذى بالبيان والحكمة ، وتفقه الكتاب والسنة ، وتفوق في العلم والمعرفة ، وفي الحكمة والخ طابة ، ((وكانت ثمرة لنشأته الرفيعة وبيئته العجيبة وحياته الخصبة ، وتجاربه الجليلة في الحياة ، . أن عرف حكما تتفجر الحكمة من بيانه ، وخطيباً تتدفق البلاغة على لسانه ، وواعظاً ملء القلب والسمع، وكاتباً بليغاً مترسلاً بعيد غور الحجة ومتكلماً يجول ببيانه في كل محل ، ويصول به في كل نضال ،ويفاضل به في عن الدين

---

(١) المستدرك على الصحيحين :٨١/٢ .
(٢) - الأدب الإسلامي في عهد النبوة وخلافة الراشدين :٢٦ .

والدعوة ،أروع فضل)) .[1]

وبهذا قد أثر الإمام عليه السلام_ بلا شك _ في أدب هاتين الحقبتين ، خصوصا إذا ما علمنا أنهما قامتا، وقادتها ممن يوالون علي ابن أبي طالب عليه السلام وسائرون على خطه ، على النقض من خصومهم أي: أنهم كانوا يتوسلون بنثر الإمام عليه السلام ويودعنه في خطبهم ورسائلهم ، لدعموا بها آراءهم وحججهم. لان نثر الإمام عليه السلام كان يواكب مجريات الحزب الشيعي، فكان لسانه الناطق، وقلبه النابض ، وعقه الجدلي الواعية الذي لا يكل و لا يمل فاتخذوه موردا من موارد نثرهم.

وعندما نقرأ في نثره م ونحكم عليه با لتأثر بنثر الإمام علي عليه السلام فإنما يكون ذلك بالمقارنة بما جاء في نثرهم ،ونثر الإمام علي (عليه السلم) الذي يضمه بين دفتيه كتاب (نهج البلاغة)، وهو ذلك الكتاب الجليل والأثر الأدبي الخالد، بعد كلام الله و وكلام رسوله الذي قد جمعه الشرف الرضي المتوفي سنة ٤٠6 هـ وهو مشتمل على

كل ما نسب للإمام عليه السلام من خطب ووصايا ونصائح وحكم وأمثال ومواعظ ومحاورات ورسائل وعهود وغيرها .

وقد قال الشريف :الرضي (ت٤٠٦هـ) واصفا كلم الإمام عليه السلام

(كان أمير المؤمنين (عليه السلام) مشرع الفصاحة وموردها ،ومنشأ البلاغة ومولدها ومنه (عليه السلام) ظهر مكنونها وعنه أخذت قوانينها ُوعلى أمثلته حذا كل قائل

وبكلامه استعان واعظ بليغ...لأن كلامه (عليه السلام) الكلام الذي عليه مسحة من العلم الإلهي وفيه عبقة من الكلام النبوي... فأما كلمه فهو البحر الذي لا يساحل والجم الذي لا يحافل))[2] .

ومن ه نا تأثر النثر الفني في هاتين الحقبتين بكلامه عليه السلام فزينوا به خطبهم ورسائلهم،

---

(1) - الحياة الأدبية في عصر صدر الإسلام :١٥ .
(2) -نهج البلاغة (شرح محمد عبده) ١٥-١٦ .

مضيفين إلى الجانب الدلالي ، الجانب الجمالي والتأنق بالعبارة .

وسوف نلحظ مدى تأثر النثر في هاتين المرحلتين بنثر الإمام علي عليه السلام الأمثلة التي وردت في خطبهم ورسائلهم فمما جاء على طريق التأثر بكلامه عليه السلام ما ورد خطبة المسيب بن نجبة الفزاري ((**أمّا بعد فانّقدَ ابتلينا بطول العمر ، والتعرض لأنواع الفِتَنْ فنرغب إلى ربنا ...فان أمير المؤمنين قال :العُمر الذي اعذر الله فيه الى ابن آدم ستون سنة ، وليس فينا رجل الا وقد بلغه)).** [1]

فنجد أن الخطيب قد تقتل مقولة الإمام عليه السلام في خطبته ليتمكن من إيصال

الدلالات إلى ذهن السامع ، يجذب تنبهه عن طريق هذا الاستشهاد ، وهذا القول موجود بنصه في نهج البلاغة ، قال أمير المؤمنين ((العُمُرُ الذي اعذر الله فيه إلى ابن آدم ستون سنة)).[2]

وتدل هذه المقولة التي استشهد بها المسيب أن هؤلاء التوابين قد أصبحوا شيوخا متجاوزين مرحلة الطيش وقد اختاروا طريق التوبة[3] فلا عذر بعد ذلك للقعود عن الجهاد والسكوت على الهوان ، والظلم قد ساق قول الإمام عليه السلام لأنّه كان يراه حجة عليه ، فالأخذ به واجب لا مناص منه .

ومما جاء في ذلك أيضا ما نجد في خطبة سليمان بن صرد الخزاعي بقوله:

((أمّا بعَد ، فقَدْ أتاكم الله بعدوكم الذي دأبتم في المسير إليه آناء الليل والنهار تريدون فيما تظهرون التوبة النصوح ، ولقاء الله معذرين ، فقد جاءوكم بل جئتوهم بل جئتموهم انتم ولا دارهم وحيزهِمِ ، فإذا لقيتموهم فاصدقوهم ... لا تقتلوا مُدبرًا ، ولا تجهزوا على جريح ، ولا تقتلوا أسير من أهل دعوتهم ، إلا أن يقاتلونكم بعد إن تأسروه ، أو يكون من قتلة إخواننا بالطف رحمةُ الله عليهم ، فان هذه كانت سيرة أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب

---

(1) - جمهرة خطب العرب ١/٥٨ .
(2) -نهج البلاغة شرح محمد عبده(تحقيق كمحمد محي الدين عبد الحميد) :٣/٢٣١ .
(3) - ظ : خطب التوابين بعد مقتل الإمام الحسين ،بحث) :١٥ .

في اهل هذه الدعوة)) .[1]

فقد اعتمد ابن صرد في خطبته هذه اقتباسا دالا مؤكدا يحيل إلى سيرة الإمام عليه السلام

قولا وفعلا في قوله: (لا تقتلوا مدبراً، ولا تجهزوا على جريح ، ولا تقتلوا أسيراً من أهل دعوتم). وهذا القول مأخوذ من قول الإمام عليه السلام لا تقتلوهم حتى يبدءوكم فأنكم بحمد الله على حُجَّة ، وترككم إياهم حتى أخرى لكم عليها فإذا كانت الهزيمة بإذن الله فلا تقتلوا مُدْبراً ولا تضْربُوا مُعوْراً ولا تجُهزوا على جَريح ولا تهيجوا النساء)).[2]

فقد تمثل الخطيب وصية الإمام عليه السلام في جنده لتظهر على فعله وفعل أصحابه في

قتال أعدائهم، وكذلك حتى يبرهن على التواصل والامتداد الفكري والفعلي بينه وبين الإمام عليه السلام ،وإنهم لم يثوروا طلاب ملذة أو متاع ، علاوة على ذلك إن التمسك بسيرة الإمام عليه السلام

يعني التمسك بالأخلاق الحميدة العليا والمعاني الإسلامية السامية في قتل الجرحى أو اضطهاد الأسرى وسبي النساء ان هم خاضوا غمار الحروب وان سيرة أمير الموهنين هذه هي عينها سيرة رسول لله (صلى الله عليه وآله وسلم) فقد روي الرسول الكريم كان اذا بعث سرية. قال ((اغزوا بأسم الله وقاتلوا من كفر ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تقتلوا وليدا ولا شيخاً كبيراً)).[3]

فهذه السيرة في الحرب هي سيرة الرسول المصطفى وقد جسدها أمير المؤمنين في حروبه

وأوعز بها إلى ولاته تنفيذا، وهي سيرة النبلاء والصالحين ، وقد وصى بها ابن صرد وقومه انسجاما مع خط رسول الله نبي الأمة ووليه علي بن أبي طالب ليبرهن،على أصحاب حق وأصحاب رسالة.

وبالموازنة بين سيرة الإمام والتوابين وسيرة بني أمية عندما قاتلوا الحسين عليه السلام وقد قتلوا

---

(1) -جمهرة خطب العرب :٧٢/٢ .
(2) -نهج البلاغة (شرح محمد عبده) ٤٣٦-٤٣٧ .
(3) -مجمع الزائد ٥٧٢/٥ .

الولدان وسبوا النساء وقتلوا الأطفال يتبين من هو على الهدى ومن هو الهدى ومن هو في الضلال المبين قال الله تعالى: ﴿ **فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلالُ فَأَنَّا تُصْرَفُونَ** ﴾ .[1]

ومما جاء على سبيل الأخذ بأسلوب الإمام علي فيفي خطاباته ، واستمداد معانيه ما ورد في خطبة عبيد الله المري. لقوله:

((أمّا بعد ، فانّ الله اصطفى محمداً (صلى الله عليه وآله وسلم) على خلقه بنبوّته ، وخصّه بالفضل كله ، وأعزكم بإتباعه وأكرمكم بالإيمان به ، فَحَقِنَ به دماءكم المسفوكة ، وأمنَ به سبلكم المخوفة ،وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها ، كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون)).[2]

وأسلوب هذه الخطبة احتذاء لأسلوب الإمام علي عليه السلام في إحدى خطبه حين قال :((**ان الله بعث محمداً (صلى الله عليه وآله وسلم) نذيراً للعالمين وأميناً على التنزيل وانتم معشر العرب على شرديين وفي شر دار منيخون خشن وحيات صم تشربون الكدر وتأكلون الجشب وتسفكون دماءكم وتقطعون أرحامكم الأصنام فيكم منصوبة والآثام بكم** معصوبة)).[3]

وهن هنا نجد أن خطيب التوابين قد نهل من أسلوب الإمام علي في تمثله في خطبته وكأن لا هم له إلا ان يأتي بالأفكار التي قالها الإمام لم عليه عليه السلام وهي أن انه قد بعث محمداً الى العرب وحقن دماءهم بعدما كانت مسفوكة بين الحين والأخر، وأن الرسول الذي خلص هذه البشرية من الاقتتال والظلمات.

وأراد الخطيب من هذه المقاربة الأسلوبية أن يذكر الأمة بعظيم فض ل النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) عليها فالواجب احترام ذريته المتمثلة بالإمام الحسين عليه السلام

---

(1) - يونس : ٣٠
(2) -جمهرة خطب العرب ٦٣/٢ ، والآية ١٠٣ .
(3) - نهج البلاغة (شرح محمد عبده):٧٠ ، الجشب : الطعام الغليظ ، معصوبة : مشدودة .

وأهل بيته الأطهار. ولكن الذي جرى هو على النقيض تماما 0فبدلا من أن يحترموا ذريته جزاء له اخذوا بقتلهم والتنكيل بهم.

والمهم أن الخطب اتخذ من أسلوب الإمام علي عليه السلام وسيلة لتوصيل هذه الأفكار وبثها في أذهان سامعيه، لاسيما وان الخط العقدى موصول بن الإمام والتوابين في هذا الباب المهم.

والى جانب السير على خطى أساليب الإمام علي في خطبه ورسائله وأقواله نجد أن الخطباء والمترسلين في هاتين الحقبتين قد نهلوا من أفكاره واقتبسوا من معانيه التي كان يرد عليها (عليه السلام) في نثره ، وأول ما يطالعنا في ذلك فكره الجهاد التي كانت ممتدة في خطب الإمام علي عليه السلام ورسائله ، نظرا للمصاعب والمؤامرات والحروب التي تعرض لها آنذاك فقد حارب الخوارج ، وحارب طلحه والزبير ،وحرب بني أمه ، ((ومن ثم فإنه من الطبيعي أن تتسم خطاباته بالطابع الحربي والجهادي ، كما تتسم أيضاً بالطابع الجدلي لان كثير ممن خرجوا عليه إنما خرجوا لخلاف معه في آراء بعينها)).[1]

ونجد هذا واضحا في خطب التوابين بخاصة، نظرا للظروف التي أحاطت بهم فكان اعلان الجهاد والدعوة إليه هو الطابع العام الذي كان يتردد في خطبهم ورسائلهم ، فكانوا يتوسلون في طلب ذلك بالنصوص القرآنية التي تحث على الجهاد وبمقولات الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام في فكرته عنه كقوله :((أمَّا بَعْدُ فإنَّ الْجِهَادَ بَابٌ مِنْ أبْوَابِ الجَنّةِ فتَحَهُ الله لِخاصته وَأوْلِيَائِهِ وهُوَ لِبَاسُ التقوى ودِرْعُ الله الحَصينة وجُنَّتُهُ الْوثيقةُ)).[2]

فإذا كانت هذه فكرة الإمام عليه السلام فمن الطبيعي ان يتدافع الشيعة الامتثال لذلك من دون تردد وهم أولى الناس به .وهكذا نجد الدعوة إلى الجهاد والتحريض عليه من الميزات المهمة في نثر التوابين.

---

(1) الأدب في موكب الحضارة الإسلامية :٨٨ .
(2) نهج البلاغة (شرح محمد عبده) :٧١-٧٢ ، ظ: البيان والتبيين :٥٣-٥٤ .

فقد جاء في خطبة ابن صرد:((**أمّا بعد أيها الناس ، فإن انه قد علم ما ستَوون ، وما خَرَجْتم تطلبون ، وإنّ للدنيا تجارا... فعليكم (يرحمكم الله) في وجْهُكم هذا بطول الصلاة في جوف الليل ، وبذكر الله كثيراً على كل حال ، وتقربوا إلى الله جلّ ذِكرهُ بكل خير قدرتم عليه ، حتى تلقوا هذا العدو والمحلِ القاسط فتجاهدوه ،فإنكم لم تتوسلوا الى ربكم بشيء هو اعظم عنده ثواباً من الجهاد والصلاة**)) .[1]

فقوله:(فإنكم لم تتوسلوا إلى ربكم بشي، هو أعظم عنده ثواباً من الجهاد والصلاة) قد احتذى به أسلوب الإمام علي (عليه السلام). واستمد منه معانيه ، فقد قال الإمام في خطبة له في أركان الدين:((إن أفضل ما توسل به المتوسلون إلى الله سبحانه وتعالى الإيمان به وبرسوله والجهاد في سبيله فانه ذروة الإسلام وكلمة الإخلاص فإنها الفطرة وأقام الصلاة فإنها الملة)) .[2]

فقد أخذ ابن صرد من قول الإمام علي (عليه السلام) ما يجده مناسبا محولا نصه بصياغة جديدة وقد راعى حال المخاطب ومقتضى المقام ، فلم يفصل كما فصل الإمام عليه السلام كلامه ، بل أوجزه ما أمكنه ذلك ،مكتفيا باستعداد المعاني التي يجدها مناسبة لقوله ، وقد حث أنصاره على الصلاة والجهاد، وهما خير ما يتوسل بهما المسلم إلى الله تعالى ، ونلحظ ان الخطيب لم يكتف لك الاستمداد ، ولم يرهق ذهنه باستحضار المعاني ، فكانت تلك المعاني الخاصة بأسلوب الإمام علي عليه السلام ماثلة في ماثله في ذهنه وفكره وروحه .

ونجد مثل هذا في رسالته حين بعث بها إلى سعد بن حذيفة ، فقد تمثل أسلوب الإمام ومعانيه في فكرة الجهاد، من ذلك ما جاء في هذه الرسالة.

((ولتكُن رغبتكم في دارِ عافيتِكمُ ، وجهاد عدّو الله وعدّوكم وعدو أهلِ بيت نِبيكمِ))[3]

وهذا مستمد من قول الإمام علي عليه السلام في خطبته التي جاء فيها:(فانفذوا على بصائركم

---

(١) جمهرة خطب العرب ك٢/٧١ .
(٢) - نهج البلاغة (شرح محمد عبده) ٢٠٨ .
(٣) -جمهرة خطب العرب :٢ /٢١٦ .

ولتصدق نياتكم في جهاد عدوكم)) .[1]

فجاء الخطابان كلاهما بصيغة الأمر، والحث على الجهاد فكان ابن صرد قد تأثر بفكرة

الجهاد التي أمر بها الدين الحنيف ، وسار عليها الإمام علي عليه السلام فلم يجد المنشئ بدا من أن ينهل من أسلوب خطب الإمام علي وأقواله حول مشروعية الجهاد ليدعم بها اسلوبه ويقوى حجته ، وهكذا شاعت رمح الجهاد`في خطب ورسائل التوابين شيوعا يتماشى مع ظروف الثورة التي قاموا بها ، فكانوا يدعون إلى جهاد أعد ائهم الذي يسمونهم تارة القاسطين والمحلين والخارجين تارة أخرى على علي عليه السلام وأبنائه [2] .

ومن الأفكار والمعاني التي استلهمها الخطباء والم ترسلون في هذه الحقبة هي الزهد في الدنيا وترك ملذاتها ، والحث على طلب التقوى، فكان ذلك هاجسا آخر يتردد في خطبهم ورسائلهم ، وقد تكررت هذه المعاني كثيرا على لسان الإمام علي عليه السلام في نثره الذي ضمه في دفتيه كتاب (نهج البلاغة).

ومن الطبيعي أن كون الإمام علي عليه السلام وه و أول المسلمين اسلاماً وأقدمهم إيمانا أن يزهد في الدنيا ويدعو إلى تقوى الله عز وجل، وهذه هي مبادئ الإسلام العظيم الذي جاء بها نبيه محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) وقد أكد القرآن الكريم بالكثير من الآيات التي تدعو إلى الزهد في الدنيا، والحث على طلب التقوى.

ومن الطبيعي أن شكون هذه المعاني راسخة في أذهان التوابين ، لأنهم طلاب آخرة، وأصحاب ثوره ، فكان التزهد في الدنيا وطلب التقوى مضموناً فصدياً تردد في خطبهم ورسائلهم.

من ذلك ما جاء في رسالة ابن صرد إلى سعد بن حذيفة ينفر فيها من الدنيا 0

ويدعو إلى التقوى والجهاد في سبيل الله:

---

(1) - نهج البلاغة : شرح محمد عبده : ٣٧٣ .
(2) - ظ : حزب الشيعة في أدب العصر الأموي :٧٩ .

((بسم الله الرحمن الرحيم . مِنْ سُليمان بن صرد إلى سعد بن حذيفةَ وَمَنْ قبلَهِ ِمن المؤمنين، سلام عليكم ، أمّا بعْد؟ فإنّ الدنيا دار قَد أدبر منْها ما كان معروفاً ، وأقبلَ منها ما كان منكراً ، وأصبحت قد تشنأت إلى ذوي الألباب ، وأزمع الترحال منها عباد الله الأخيار ....)).[1]

وهذا المعنى مأخوذ من قول الإمام عليه السلام من خطبة له يدعو فيها إلى التزهيد في الدنيا : لم(آلا وإنّ الدُنْيا قَدْ تصرمَتَ وأذنَتْ بارقِضاءٍ وتنكّر مَعْرُوفها وأدْبرَتَ ْحَذَّاءَ فهَيَ تخْفزُ بالفناء سرْكَارَا .....)).[2]

أو ومن قوله عليه السلام من خطبة له:((أما بعْدُ فانَّ الدُنْيا قد أدبرْتَ وأذنَت بوَداعٍّوان الآخرة قد أقبلت وأشْرفت باطلاع)) .[3]

وبعد ذلك يمضي ابن صرد حاثاً على التقوى فيقول :((**أنَّ التقوى أفضل الزاد في الدنيا ، وما سوى ذلك يبُور وَيفْنى ، فلتَعرُف عنها أنفُسُكم ، ولتكن رغبُتكم في دار عافيتكم ، وجهاد عدو الله وعدوكم ، وعدو أهل بيت نبيكم)) .**[4]

وهنا يستمد ابن صرد معانيه من المعاني القرآنية المتمثلة بقوله تعالى : ﴿ **وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِي يَا أُوْ لِي الأَلْبَابِ** ﴾[5] . وهو ايضاً يذكرنا بأقواله عليه السلام في وجوب التمسك بالتقوى والعمل الصالح ، وبالدعوة إلى جهاد أعداء الله تعالى الذي كان طابعاً قصدياً مهيمناً على خطبه ورسائله .

هاشم جبار صرام

---

(1) - جمهرة رسائل العرب : ١١٤/٢ .
(2) - نهج البلاغة (شرح محمد عبده) :١٠١ -١٠٢ .

(3) - السابق : ٧٤ -٧٥ .
(4) - جمهرة رسائل العرب :١١٦/٢ .
(5) - البقرة :١٩٧ .